



العثمانيون

الوجه الآخر للتاريخ

يعتبر توظيف التاريخ لعوامل دينية وسياسية من أهم العلل التي أصيبت بها الكتابة التاريخية فــى عالمنا الإسلامي. ومــن أخطر هذه المظاهر ما يعــرف بصياغة التاريخ المقــدس، بوضع هالات القداســة فوق رؤوس الشــخصيات التاريخية، بما يخرجهــا عن طابعها البشــري، وحتى عن ثقافتنا الإسلامية التي تحرص على بشرية الإنسان، ورفضت تقديس البشر.

ومن النماذج الشهيرة في مجال صناعة التاريخ المقدس في ميدان التاريخ العثماني شخصية السـلطان محمد الثاني، الذي عُرف بمحمد الفاتح بعد سـقوط مدينة القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية في عام 1453م؛ إذ حرصت بعض الكتابات ذات التوجه الإسلاموي على "أسطرة" تاريخ محمد الثاني، أي جعله أقرب إلى الأســاطير منه إلى التاريخ، ومزج ذلك بالطابــع الديني. ويأتي ذلك في إطار صناعة الأسـطورة الدينية بـأن محمد الثاني هـو "الأمير المُبشـر"، أي الأمير الذي بُشـر بأنه فاتح القسطنطينية في الحديث المنسوب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم. وفي إطار ذلك يصف البعض الســلطان محمد الثانــى قائلاً: "ارتقى عرش الســلطنة للمرة الثالثة، كان أعظــم أمله تحقيق نبوءة الرسول صلى اللــه عليه وسلم في فتح القسـطنطينية وجعلها عاصمة لدولته". وأن محمد الثاني اســتحق لقب الفاتح: "لتحقيقه نبوءة الرسول صلى اللــه عليه وسلم وبشــارته". وفي إطار صناعة الأسطورة الدينية تمتد هذه القداسة إلى كامل السلاطين العثمانيين والأسرة العثمانية؛ إذ نسب هؤلاء إلى محمد الثاني قوله: "إن المقصد الأعلى لهذه العائلة- العثمانية- هو إعلاء كلمة الله"!!

هكذا تم خلط التاريخ بالأسطورة، وصناعة التاريخ المقدس للسلطان محمد الفاتح، بل والأخطر مـن ذلك هو امتداد هذه القداسـة إلى كافة السلاطين، بل والأسـرة العثمانية كلها. وبذلك تم حجب التاريخ البشري لمحمد الثاني، وأصبح من المسكوت عنه في التاريخ العثماني الحديث عن الدماء التي سالت في عهد محمد الثاني، بل وأحيانًا على يديه، بل تم السكوت عن محاولاته لتشريع عمليات الاغتيال والإعدام غير المبررة، بل لجأ البعض أحيانًا إلى تبرير ذلك والبحث عن مصوغ شرعى له.

ومن الأحداث الدموية في تاريخ محمد الثاني تمثيله بجثة الإمبراطور البيزنطي بعد دخوله إلى القســطنطينية. ويصف المؤرخ البيزنطي دوكاس هذا الأمر الشنيع قائلاً: "تم تعليق رأس الإمبراطور البيزنطــي على عمود أغســطس، حيث ظــل في مكانه إلى المسـاء، وبعد ذلك تم حشــوه بالقش-تحنيطه- وأمر محمد الثاني أن يتم إرسـال رأس الإمبراطــور البيزنطي إلى حكام العرب والفرس، وإلى باقى الأتراك، كدليل دامغ على انتصاره على البيزنطيين". ويحاول البعض تبرئة محمد الفاتح من هذا الفعل الشنيع، وينسب قتله إلى بعض الجنود، بل

ويقدم رواية أخرى في إطار وضع هالات القداســة فوق رأس محمــد الفاتح: "عز على محمد الفاتح أن يُمَثل بالإمبراطور البيزنطي على هذا النحو، فأمر بقطع رأس ذلك الجندي الذي ارتكب هذه الفعلة، وأن يحتفل بدفن الإمبراطور قسطنطين بما يليق بمكانته ومنزلته".

> البشــري، والطموح السياســي لمحمد الثاني؛ إذ يصفه أحد الرحالة البنادقــة المعاصرين له قائلاً: "مصمــم فــى أهدافه، جــرئ في جميــع الأمور، وحريص على الشهرة كالإسكندر الأكبر المقدوني، يسمع كل يوم تواريخ الرومان وغيرهم، ومدونات البابوات والأباطرة وملوك فرنسا... يلتهب رغبة في الحكم". هكذا تحرص المصادر الغربية على التذكير

وتؤكد المصادر الأوروبية على الطابع

رغبته ونهمه إلى الحكم، نجده لا يتورع في الإطاحة بالجميع من أجـل الحفاظ على حكمـه؛ إذ يقوم بإعدام وزيره الشهير خليل باشا، الذي كان من رأيه التروي قبل القيام بالحملة على القسطنطينية.

دائمًا بالطابع البشــرى لمحمد الثاني. وفي سبيل

أساطير متناقضة في التاريخ العثماني أثرت على الفهم المعاصر.

فقهيًا وقانونيًا بعد سـقوط الدولـة العثمانية، في أثناء العهد الجمهوري، حول مدى مشـروعية هذه القوانين. ويدافع أصحاب اتجاه التاريخ المقدس عن هذه القوانين الجائرة وعمليات القتل غير المبرر بأن

خصومه تحت ستار قانوني، بل وأحيانًا بفتاوي شــرعية أصدرها علماؤه. ولقد أثارت هذه القوانين جدلاً

والأمر المثير للجــدل هو مجموعة القوانين التي أصدرها محمد الثاني، والتي أتاحت له تصفية

هذه القوانين لا تخالف الشـرع الإسلامي: "لكـن قد تكون هناك في التطبيــق العلمي وقائع مخالفة للشرع الإسلامي وللقانون". ومن أخطر هذه القوانين مسألة قانون قتل الإخوة، هذا القانون الذي سنه محمد الثاني: "إذا تيســرت الســلطنة لأي ولد من أولادي فيكون مناسبًا قتل إخوته في سبيل تأسيس نظام العالم، وقد أجاز هذا معظم العلماء، فيجب العمل به"!! وترتب على ذلك في الحقيقة إعدام حتى الطفــل الرضيع!! ويعترف البعض بفداحة هذا الجرم الذي لا يمكن الدفاع عنه، ولا الإدعاء بأنه يتلائم مع القانون. بل ووصل الأمر إلى حد قتل الأبناء بفتوى شرعية، مثل حالة قتل الأمير مصطفى ابن السلطان

سليمان القانوني بفتوي شرعية، وبرضاء من السلطان الأب!! خشية تطلعه إلى الحكم.

البعض التشكيك في ذلك. هكذا يتضح لنا بطلان أسطورة التاريخ المقدس التي روَّج لها البعض عن السلطان محمد الثاني

كما قتل السلطان محمد الفاتح نفسه شقيقه الأصغر أحمد، تحت غطاء قانون الإخوة، ويحاول

به محمد الفاتح من إعدامات غير مبررة، وقوانين وفتاوى تبيح القتل حتى للطفل الرضيع.

"الفاتح"، وأنه الأمير المُبشَر به في حديث الرسول صلى اللــه عليه وسلم؛ إذ لا يستقيم ذلك مع ما قام



أستانبول، 1999.

- 1. أحمد آق كوندز، سعيد أوزتورك: الدولة العثمانية المجهولة، أستانبول، 2008. 2. أكمل الدين إحسان أوغلى: الدولة العثمانية، تاريخ وحضارة، المجلد الأول،
 - 3. برنارد لويس: أستنبول وحضارة الخلافة الإسلامية، تعريب: سيد رضوان عليّ، الرياض، 1982.
 - 4. حاتم الطحاوى: اقتحام العثمانيين للقسطنطينية، شهادة المؤرخ البيزنطي دوكاس، مجلة الاجتهاد، شتاء 1999، بيروت.
- 5. عبدالسلام عبد العزيز فهمى: فتح القسطنطينية، القاهرة، 1969، ص ص 89- 90.